الشيخ سعيد الخوري الشرتوني

اقترحت عليَّ مجلة المقتطف ان اكتب لها ترجمة وجيزة لفقيد اللغة والانشاء الشيخ سعيد الخوري الشرتوني اصفهُ فيها كمؤلف ومنشئٍ ومدرس وشاعر ووالد وصديق فكتبت السطور التالية

هو سعيد بن عبدالله بن ميخائيل بن الياس بن يوسف ابن الخوري شاهين الراعي انشأت اسرتهُ في قرية رام ميفوق من اعمال كسروان فلما خربت تلك القرية رحل بعض سكانها وفي جملتهم الخوري شاهين الراعي فاستوطن شرتون وهي قرية من قرى الجرد في قضاء الشوف من لبنان . ثم تغلب على سلالته لقب بلدتهم فعرفوا ببني الشرتوني ومنهم نشأ صاحب الترجمة

ولد في شرتون عام ١٨٤٩ فكبر وترعرع امياً مثل كثيرين من اترابهِ في ذلك العهد . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمرهِ شاهد يوماً فتاة في شجرة تين تتناول ثمراً فرشقها بهِ فذعرت وزلت قدمها فسقطت الى الارض وماتت على الاثر . فخاف وتولاهُ الرعب وحسب للعقاب الف حساب . وللحال هرب من قريتهِ لا يلوي على شيء

ولا يتوهمن القراء ان هذه الحكاية خرافة لا اصل لها فاني سمعتها عن لسان احد انسبائهِ وانما استطردت اليها تأييداً لقولهم (رُبَّ شر ادى الى خير) فان الجناية التي ارتكبها صاحب الترجمة غير متعمد ولا بالغ من الرشد كانت مبدأ حياتهِ العلمية الجديدة وجهادهِ الادبي ومفتاحاً لشهرتهِ المترامية . واليك البيان

هام على وجههِ حتى وصل الى قرية عبيه فشفق المرسلون الاميركيون عليهِ وادخلوهُ الى مدرستهم هناك وكان ذلك سنة ١٨٦٢ فمكث فيها عامين ثم انتقل الى مدرسة سوق الغرب التي انشأها المرحوم الياس الحلبي باموال الانكليز فاتمَّ دروسهُ اي مبادئ الحساب والجغرافيا وشيئاً يسيراً من مبادىء اللغتين العربية والانكليزية . على انهُ كان ذكياً حاد الذهن مجتهداً لا يضيع وقتهُ سدًى فاكتسب بالمطالعة اضعاف ما تلقاهُ من المدرسة

وفي ذلك الحين طُلب مدرساً الى مدرسة عين تراز للروم الكاثوليك فقضى فيها خمس سنوات ودرس عليهِ كثير من الطلبة وكانت المطالعة والممارسة تزيدانهِ خبرة ومعرفة وتضلعاً . وانتقل من هناك الى دمشق فدرَّس فيها حيناً حتى سنة ٧٥ ثم انتقل الى كلية الآباء اليسوعيين فمكث ١٥ عاماً يدرس فيها وفي مدرسة الناصرة للراهبات ثم في المدرسة

البطريركية ومدرسة الحكمة . ولم يتم عليهِ هذا الزمن حتى بدا نبوغهُ في اللغة وصار يعد من المنشئين الذين يشار اليهم بالبنان

وقد تولى تصحيح مطبوعات اليسوعيين نحو ٢٢ سنة لم يكن يفتر فيها بحكم الضرورة وعامل الرغبة عن مواصلة البحث والتنقيب في اسفار اللغة العربية فألف معجمهُ (اقرب الموارد) وهو على ما فيهِ من السهو في بعض المواضع يعد اقرب المعجمات العربية مأخذاً واجملها اسلوباً . ومن مقدمة الجزء الثالث منهُ تتضح اهميتهُ وما اقتضاهُ وضعهُ من العناية والتدقيق . ولاسيما ان المؤلف جمع فيهِ شوارد اللغة التي استخرجها من بحور المؤلفات العربية بعد ما طال الامد على فقدها من المعاجم . وما علم احد قبلهُ انها من جمان اللغة ولو عثروا عليها او تنبهوا لها لاثبتوها في مظانها . وقد نظم المؤلف ما كان منفرطاً من عقدها وجعل امام كل لفظة منها حرف (س) اي سعيدية او منسوبة الى سعيد

ومن مؤلفاتهِ في عهد التدريس وبعدهُ بقليل (السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب) وهو اقدمها وقد انتقد فيهِ بعض الضوابط التي جاءت في كتاب (غنية الطالب) لاحمد فارس الشدياق . ولهُ ايضاً (الشهاب الثاقب) في الترسل و (المعين) في التمرن على الانشاء و (مطالع الاضواء) و (الغصن الرطيب) و (نجدة اليراع) في اللغة و (حدائق المنثور والمنظوم) وكلها من انفس ما كتب في اللغة والخطابة والانشاء والشعر والبيان . وقد نشر ايضاً كتباً اخرى معلقاً عليها الحواشي منها (نوادر ابي زيد) و (بحث المطالب) وغيرها

وهكذا صرف الفقيد عمرهُ باحثاً منقباً لفائدة ابناء قومهِ واحياء ما طمس من معالم اللغة . وظل بين المحابر والاقلام يؤلف وينشئ المقالات في الجرائد والمجلات حتى مني بفقد شقيقهِ المرحوم رشيد ثم رشقهُ الدهر بسهمين فقد بهما كريمتيهِ وكانتا من ذوات الادب الرائع على ما سنبينهُ . فساورتهُ الهموم وضعضعت هذه المصائب قواهُ واوهت جلدهُ فاشترى بيتاً في الشياح من ضواحي بيروت وانزوى فيهِ لا يتعهد القريحة الأ نادراً ولبث على ذلك حتى ادركتهُ الوفاة في ١٨ آب (اغسطس) سنة ١٩١٢

هذا مجمل ترجمة حياة هذا اللغوي الكبير اوردتهُ تمهيداً لما سيأتي من التفصيل بحيث اصف الفقيد في ادوارهِ الادبية والاجتماعية مؤلفاً ومنشئاً ومدرساً وشاعراً ووالداً وصديقاً مؤلفاً

كان صاحب الترجمة بحاثة مدققاً في ما يجمعهُ ويعلقهُ من الحواشي . بيد انهُ تحدى في الجزءين الاولين من معجمهِ (اقرب الموارد) قاموس محيط المحيط فلم يزد على ما جاء فيهِ ولا

اصلح ما بدر من الهفوات في شرح بعض الالفاظ بل اثبتها على علاتها لم يغير فيها حرفاً فكان في ذلك مقلداً اكثر منهُ مؤلفاً مدققاً . ولكن حسناتهِ في الجزء الثالث الذي سماهُ (ذيلاً) لاقرب الموارد ترجح على سيئاتهِ في الجزءين الاولين . فانهُ استقصى فيهِ شوارد اللغة على ما تقدم بيانهُ ولم يدع آبدة الاقيدها ولا شاردة الاَّ ردها اليهِ فبلغ في ذلك غاية ليس وراءها مذهب لطالب ولا مضرب لرائد

اما بقية مؤلفاتهِ التي اتيت على ذكرها فقد تصفحت منها جانباً عظيماً فلم اجد — على قصر نظري — ارصف منها تعبيراً ولا امتن سرداً ولا اسدَّ ضابطاً مع تنزه عن التعقيد وبعدٍ عن اللبس والاشكال . وكان اذا جلس الى المكتبة للمطالعة والتأليف يوجه جميع قواهُ العقلية الى الموضوع الذي يبحث فيهِ فلا يكتفي بما يأخذهُ من كتب القوم بل يزيد ويحذف ويبسط رأيهُ مسنداً الى النصوص اللغوية فلا تأتي عبارتهُ الاَّ مستوفاة الشروط تتجلى فيها آثار التحقيق

ولو كان لهُ حظ وافٍ من لغة اجنبية او لغة شرقية سامية غير العربية لكانت مؤلفاتهُ اتم فائدة . ولكنهُ اكبَّ على العربية وخصها بجهدهِ ولم يشأ ان يشرك معها لغة اخرى

وكان فوق ذلك كثير المحفوظ قوي الذاكرة بعيد النسيان لا يقرأ شيئاً الا يعيهِ على ظهر قلبهِ . وهذا ما اعانهُ على التفرق في اللغة العربية وجعلهُ قوي الحجة سريع الاستشهاد في كتابتهِ وحديثهِ . وقد ساجلتهُ مراراً في اللغة وسواها فكان يورد لي اقوال ابن سيده وسيبويهِ كأنهُ يقرأها امامهُ فيدهشني بصفاء ذهنهِ وشدة عارضتهِ

واذكر مرة ان اديبين تناظرا في موضوع بياني واختلفا في تفسير نوع من التشبيه فاحتكما اليهِ فاجابهما على الفور بما حضرهُ من نصوص ائمة البيان في التشبيه وحكم بينهما فارتاحا الى اقوالهِ وانصرفا معجبين بهِ

منشأهُ

كان يجري في انشائهِ طريقتين احداهما سهلة المأخذ واضحة المنهج رقيقة الالفاظ . والثانية صعبة المرتقى خشنة المركب . اما الاولى فكان يلجأ اليها في تآليفهِ على ما سبقت الاشارة . وهذا كتابهُ (الشهاب الثاقب) فانهُ يشتمل على رسائل شائقة في موضوعات مختلفة وكلها موشاة ببرود البيان لما فيها من السجع المطرب والنثر المرسل الانيق مع خلوٍ من التعقيد فلا التلميذ يستوعر مسلكها ولا اللغوي الاديب يجد فيها مطرحاً للنقد

واما الثانية فكانت لغة المناظرة وما شاكلها يعمد اليها في مساجلة نظرائهِ وفي مقدمات

مؤلفاته . وقد نشر المقتطف وغيره طرفاً من اسلوبه الانشائي ايام احتدمت المناظرة بينه وبين احمد فارس وسواه من اساطين اللغة . ولي ما يؤيد صحة ما قلته من اجتهاد صاحب الترجمة في اختيار عويص الالفاظ . كما ان مقدمة معجمه تثبت ذلك ايضاً . وانما يعمد كبار المنشئين الى هذه الطريقة ليظهروا مقدرتهم اللغوية ويسوم الواحد منهم الآخر عنتاً او جهداً لعله يقرعه

وكان سريع الخاطر في انشائه لكثرة محفوظه وجودة ملكته . لا اقصد بذلك انه كان صحافياً لان الصحافة صناعة لم يكن للفقيد حظ منها . وكثيراً ما كان يقول لي اني استغرب مقدرة المحرر في الجرائد اليومية فهو ينتقل من موضوع الى آخر في حين واحد من غير ان تكل قريحته او يصدأ ذهنه

وانما اريد انه كان مجيداً في ترسله بليغاً في كتابته يميل الى السهولة والسلاسة ولا يعمد الى التعسف الاَّ اضطراراً

مدرساً

التدريس صناعة قائمة برأسها لا يستطيعها الاَّ من كان مخلوقاً لها عالماً كان او غير عالم . وقد قضى الفقيد اعواماً طوالاً يزاول هذه الحرفة ولكنه لم يبلغ فيها الحد المطلوب ولا برع في التدريس كما برع في اللغة والانشاء والتأليف . فقد نقل اليَّ غير واحد من الذين درسوا عليه انه كان يسلك في شرح الدروس سبيلاً وعراً شائكاً لا يستطيع الطالب ان يمشي فيه خطوة واحدة . اي انه كان حين القائه الشرح يمثل امامه رهطاً من كبار اللغويين فيتوسع ويتناول الشعب والاطراف ناسياً ان امامه جماعة من الاحداث لا يعرفون من ذلك الدرس الاَّ ما يعلق بحافظتهم من الشرح . على انهم كانوا اقصر من ان يتناولوا شيئاً يخزنونه في صدورهم لان الشيخ كان يلقي عليهم بلغة لا يفهمونها ولا تنطبق على درجة افهامهم

ولكن المراهقين المدركين الذين كانت لهم ذخيرة سابقة من اللغة كانوا يستفيدون منه ويضيفون توسعاً الى ما يعرفونه . وكان من طريقته في الشرح انه يرسل نظرة على الدرس ثم يفيض في الشرح بلا لجلجة ولا وقوف عند الموجود في الكتاب وهكذا كان التلميذ يضيع بين الاسهاب ووفرة الاستشهاد

شاعراً

لم يكن الفقيد شاعراً ولا ميالاً الى الشعر ولكنه كان ينظم ويقرض الشعر اذا دعت الحال . بيد ان نظمه — مع قلته منسجم لا تبدو عليه سمة التكلف الاَّ نادراً وان كان بعض

الاحيان سقيم التركيب قلق التواني

فمن نظمهِ لمَّا كان في دمشق عام ١٨٧٣ قولهُ في الخط

لولاك يا خطُّ لم يثبت ضياءُ حجى ... ولا عرفنا شؤُون الاعصر الاول

فمن مواد مداد قد ظهرت بهِ ... بدا لنا العلم مثل النور للمقل

ومن نظمهِ في الحكم بيتان نقشها تحت رسمهِ سنة ١٨٨٩ وهما

يحاول المرءُ في الدنيا البقاء وما ... تفوت قدرتهُ تصويرَ تمثالِ

والرسم يبقى زماناً بعد صاحبهِ ... دليل عجز وهاكم شاهد الحالِ

ونظم مرثية رثى بها احمد فارس الشدياق لما نقلت جثتهُ من الاستانة الى لبنان قال فيها

ان المنية انشبت بالكاتبِ ... اظفارها فغدا صريع معاطبِ

قد كان يلعب بالعقول بيانهُ ... لعب المدامة بالنزيف الشاربِ

ليس الجدال بمانعي من حقهِ (1) ... واري رثاهُ اليوم ضربة لازبِ

ابقى الجوائب شاهداً من بعدهِ ... يقضي لهُ بالحق دون مواربِ

وقال في مطلع قصيدة هنأ بها البطريرك بطرس الجريجيري بارتقائهِ الى الكرسي البطريركي

اخو ملكات الخير يخطبهُ الفضل ... وذو الهمة العليا يشرفهُ الفعلُ

فهذا زمانٌ فيهِ للذوق صحة ... فما تستوي فيهِ البلادة والنبل

ونظم البيتين الاتيين تقريظاً لكتاب (تاريخ الصحافة العربية) الذي وضعهُ تلميذهُ الفيكونت فيليب افندي دي طرازي وكان ذلك في الحادي عشر من شباط عام ١٩١٢ ولعلها آخر ما نظمهُ من الشعر وهما

خطَّت يدي شعراً تكاد حروفهُ ... من ذكر فيليب تفوح كعنبرِ

شهم افاض على الصحافة منةً ... ببديع سفر مثل كنز الجوهرِ

فانت ترى ان شعرهُ على انسجامهِ لم يكن يخلو من مسحة الركاكة والابتذال لان الفقيد لم يكن مطبوعاً على الشعر وانما كان يلجأُ اليهِ عند اقتضاء الحال

والدآ

كان الفقيد رقيق العواطف حنوناً على بنيهِ تذوب جوانحهُ شوقاً الى مرآهم على ان

---

(1) كان بين صاحب الترجمة والمرحوم احمد فارس تناظر في اللغة حي وطيسهُ حتى ظن كثيرون انها عدوان فاشار في البيت الى ان الجدال لم يمنعهُ من رثاءِ مناظرهِ وهذا دليل على ان الفقيد كان بعيداً عن الحقد كما سنرى

ذلك لم يكن يصرفهُ عن تهذيبهم وتعليمهم . وقد رزقهُ الله غلاماً توفي صغيراً وثلاث بنات اشتهرت منهن اثنتان في عالم الادب والانشاء وهما انيسة وعفيفة ولكن الموت رمى الفتاتين بسهمين فاصماهما واذاب قلب والدهما حزناً عليهما فجمع مآثرهما القلمية في كتاب سماهُ (تحفة الوردتين) وقرظهُ العلماء والشعراء

وقد هزلت صحة الشيخ على اثر هذا المصاب حتى عاد لا يستطيع الكتابة والتأليف وكان لا يخرج من منزله المعتزل الا لتخفيف احزانهِ ولم يزل الم يحت من قلبهِ حتى قضى وفي نفسهِ حسرات على بنتيهِ لشدة ما كانت تطوي بهِ جوانحهُ من الحب لهما

صديقاً

يزعم البعض ان الفقيد لم يكن جميل الرعاية ولا وفياً بالعهد اما انا فقد خالفتهُ وخبرتهُ فوجدتهُ كما وجدهُ كثيرون من المنصفين وثيق الذمة حافظاً للعهد صحيح الدخلة مأمون الضمير اذا ابرم ميثاقاً مع شخص احتفظ بهِ واحكم عراهُ واذا انقلب الزمان فبات الصديق معادياً لهُ قابلهُ بالحلم والصفح وسحب على الهفوة ذيل الغفران يدلك على ذلك انهُ لم ينفر من رثاء احمد فارس الشدياق على ما تقدم بيانهُ مع ما كان بينهما من المناظرات اللغوية التي حمي وطيسها

ويقال في صفاتهِ على وجه الاجمال انهُ كان عفيف النفس شريف المبادئ حريصاً على صداقة اصحابهِ حريصهُ على اوضاع اللغة العربية متمسكاً بعرى الدين طيب القلب رحب الصدر دمث الاخلاق سليم الطوية لا تشوب سريرتهُ شائبة الحقد والضغينة بل كان قلبهُ اصفى من مرآة الحسناء

وقد صادقتهُ اعواماً فلم تزدني الايام الاَّ اعجاباً بمروءتهِ ورسوخ مودتهِ وكنت آتي في عرض حديثي معهُ على من اظنهم خصومهُ لأعلم حكمهُ عليهم فلم اكن اسمع منهُ الاَّ العبارات الدالة على طيبة القلب وعفة اللسان . ولست انا وحدي قائل هذا القول بل ان كثيرين غيري من تلامذتهِ ومن كانت لهم صلة بهِ يؤيدون كلامي ويشهدون على صدق الفقيد في عهودهِ

هذا ما عرفتهُ من تفصيل احوال فقيد اللغة صاحب الترجمة اوردتهُ مع الامانة والنزاهة وبسطتهُ على صفحات المقتطف تخليداً لذكر الفقيد وايفاء لحقهِ رحمهُ الله وبرد ثراهُ ونفعنا بعلمهِ

بيروت رشيد عطيه